ما اللـغة؟؟

تعتبر اللغة أهم أشكال التعبير، وأكملها وأقدرها على نقل وتوصيل التجارب والخبرات الإنسانية، ضمن المجتمع، ويتعامل ويتفاعل من خلالها كل أعضاء المجتمع، على اختلاف مواقعهم وجنسهم وعرقهم ورتبهم وأعراقهم..الخ، كما أنها الأداة التعبيرية الأساس التي تستند عليها كل أشكال التعبير الأخرى، والتي تعتبر – مقارنة باللغة – أشكالا ثانوية.

ودراسة اللغة من المواضيع العابرة للتخصصات، فهي موضوع علوم اللغة، كما هي موضوع علم الاجتماع وعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا والجغرافيا اللغوية، بل وافردت هذه العلوم تخصصات خاصة بالدراسات اللغوية، وقد خاض في دراستها العلماء في مختلف العصور، قديما وحديثا.

تعريف اللغة:

لعل من أقدم تعريفات اللغة ما ذكره ابن جني في كتابه "الخصائص من أن "حد اللغة" أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم." وهذا التعريف على قدمه – لا يزال معتمدا عند الكثيرين من علماء اللغة؛ لاشتماله على كثير من الجوانب الأساسية للغة :كالطبيعة الصوتية والوظيفة التعبيرية للغة، وحملها للفكر والثقافة، واعتبا رها ظاهرة اجتماعية.

ويعتبر فرديناند دوسوسير رائدا لعلم اللغة الحديث، وقد تأثر بأبحاثة الكثير من علماء اللغة والاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم الانسانية والاجتماعية بصفة عامة وخاصة الشكلانيين واتباع المدرسة البنيوية، ومن أشهر كتبه "محاضرات في اللسانيات العامة"، وقضى حياته في البحث عن تأسيس علم يدرس ويبحث في أنظمة وقوانين اللغة، كأي ظاهرة طبيعية أو اجتماعية أخرى، وقد رأى أن اللغة نظام من العلامات للتعبير عن الأفكار وهي حقيقة اجتماعية يجب أن تخضع للبحث العلمي. وهي لا تكتمل إلا ضمن المجتمع ، وهي نتاجه، والفرد ملزم بقواعدها وأنظمتها التي يكتسبها من الجماعة.

في حين عرفها اللغوي الكبير نعوم تشومسكي بأنها قدرة كامنة في الذهن وقادرة على إنتاج عدد لامتناهٍ من الجمل التي يمكن توليدها من الأنماط والتراكيب اللغوية. هذه المقدرة اللغوية أطلق عليها تشومسكي مصطلح الكفاية اللغوية في مقابل الأداء الذي يعكس التطبيقات الكلامية الفعلية التي تنتجها أو تولِّدها تلك المقدرة العقلية.

وقد حاول الكثير من الدارسين وضع تعريف شامل للغة من خلال التوليف بين تعريفات شتى، ومن بينهم، د .محمد حسن عبد العزيز في كتابه (مدخل إلى علم اللغة) الذي أوضح أن اللغة" : نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة تستخدمه جماعة معينة من الناس بهدف الاتصال وتحقيق التعاون فيما بينهم."

2- اللغة ظاهرة اجتماعية:

يورد الدكتور علي عبد الواحد وافي في مقدمة كتابه اللغة والمجتمع – اعتمادا على دوركهايم وكتابه قواعد المنهج الاجتماعي– بعضا من مميزات الظاهرة الاجتماعية (باعتبارها موضوع علم الاجتماع)، فيذكر:

1– أنها تتمثل في نظم عامة يشترك في إتباعها أفراد المجتمع، يتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم، وتنسيق علاقاتهم الاجتماعية.

2– أنها ليست من صنع الأفراد وإنما ينتجها طبيعة الاجتماع، فهي من نتاج العقل الجمعي.

3– أن خروج الفرد على أي نظام منها يلقى من المجتمع مقاومة وعقابا ماديا أو أدبيا.

وكل هذه الخصائص تتوفر في اللغة فهي:

1– نظام عام في كل مجتمع يتخذه الناس للتعبير والتواصل فيما بينهم.

2– لا يصنعها فرد أو مجموعة أفراد وإنما تنتج عن الحياة الجمعية.

3– نظام يضطر الناس للخضوع لقوانينه وكل خروج عنه عن خطأ أو جهل يلقى من المجتمع مقاومة أو عقابا.[1]

إن خصائص الظاهرة الاجتماعية تنطبق على اللغة بامتياز، مما يجعلها ظاهرة يمكن دراستها ضمن الأنساق الاجتماعية، وإخضاعها لقواعد الدراسات الاجتماعية والإنسانية.

3- الإزدواجية اللغوية:

كل البشر يتكلمون، وفي ممارستهم لفعل الكلام يستعملون اللغة، وتتعدد اللغات في العالم، وهي تقدر بأكثر من 3000 لغة متكلمة في العالم حاليا حسب بعض التقديرات، عدا اللغات التي انقرضت، وعدديا تُعتبر لغةً كل لغة يتخاطب بها اثنان فما فوق، وقد يصل العدد إلى 800 مليون كما هم الناطقون بالصينية. إن هذا التنوع في اللغة لا يحصل فقط بين اللغات أو الشعوب المتباعدة بل في اللغة الواحدة نفسها، فالعربية ليست واحدة عند المتكلمين بها، بل تختلف من منطقة إلى أخرى، والفرنسيون في فرنسا يتكلمون تسع (لغات) مختلفة، حسب المناطق، والأمر ينطبق على جميع اللغات...ولا وجود لمجتمع يتكلم لغة واحدة. وهنا نأتي إلى صعوبة التمييز بين اللغة واللهجة، ومن بين المعايير المعتمدة في هذا التفريق هناك من وضع:

[1]- علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ص: 5

- المعيارية: أي اللغة المرجعية أو القياسية أو المتواضع عليها من طرف جميع الأفراد والجماعات الفرعية في المجتمع الناطق بهذه اللغة، مع العلم أن هذه اللغة تكون قد تطورت تاريخيا من لهجة محلية بفعل عوامل أهلتها لذلك.
- الحجم: اللغة أكثر اتساعا ووفرة في عدد الصيغ اللغوية المستعملة من اللهجة.
- المكانة: تحتل اللغة القياسية مكانة أعلى من اللهجة، وهي مكانة اكتسبيها تاريخيا من المجتمع.

وتتنوع اللغة في الاستعمال، ربما من فرد إلى آخر وربما عند الفرد الواحد أحيانا حسب وضعيته، ولكن الذي يعنينا هو تنوعها من جماعة لغوية إلى جماعة لغوية أخرى، ونميز هنا بين نوعين من اللهجات:

1- اللهجات الاقليمية: وهي الاختلافات في استعمال اللغة الواحدة في مناطق وأقاليم متعددة، فلهجة سكان العاصمة مثلا تختلف عن لهجة سكان وهران وتختلف عنهما لهجة وادي سوف.

2- اللهجات الاجتماعية: وهي الاختلافات اللغوية الناتجة عن عوامل اجتماعية، في المنطقة الواحدة، عوامل المرحلة العمرية، الجنس، العرق، المهنة، الرتبة الاجتماعية، السلطة...

4- الأنظمة اللغوية:

رغم التنوع والتباين بين اللغات؛ إلا أن جميع لغات العالم تتشكل وفق أنظمة واحدة تتمثل في: الأصوات – القواعد – الدلالة.

4-1- علم الأصوات: La phonologie

كل اللغات تتكون بالأساس من الأصوات المنطوقة التي تصدر من أعضاء المجموعة اللغوية وفق نظام معين ومتفق عليه، والصوت هو حركة ناتجة عن الأعضاء الصوتية في جسم الإنسان أو ما يُسمى بالجهاز الصوتي أو جهاز النطق وهو يتكوَّن أساسًا من الرئتين والقصبة الهوائية ثم الحلق والحنجرة والحبال الصوتية (الأوتار الصوتية) واللهاة واللسان والحنكين والشفتين، ومعها تجويف الفم والأنف؛ وتبعا لذلك يسمى الصوت: حلقي مثلا أو لهوي...ودراسة هذه الحركة الصوتية هي موضوع علم الأصوات(الفونولوجيا).

والإنسان يبدأ تعلمه لأصوات لغته منذ بداية تعلمه النطق، والأطفال أكثر قدرة من غيرهم على تعلم الأصوات لأنهم يكونون مزودين بالقدرة على تعلم جميع الأصوات، وبتقدم السن يقتصرون على الأصوات المستعملة في لغتهم، ويصبح من الصعب على الكبير نطق بعض الأصوات في لغات أخرى، وهذا مما يُصعب تعلم اللغات الأجنبية بسهولة.

هذه الأصوات المحدودة التي يتعلمها الأفراد منذ صغرهم؛ تؤدي وظيفة مهمة، وهي جعل أفراد المجموعة اللغوية يشكلون الكلمات التي تحمل المعاني والدلالات في هذه اللغة.

هذه الوحدات الصوتية الوظيفية تسمى بالفونيمات (phonèmes) والفونيم هو كل صوت يؤدي وظيفة في اللغة، وكل صوت لا يؤدي هذه الوظيفة فهو ليس فونيم بل مجرد صوت (فون) مثل الضاد في لغة أوروبية أو الخاء في الفرنسية أو h (اتش الأنجليزية) في العربية والفرنسية.

والفونيمات في كل لغة تشكل النظام الصوتي (الفونولوجي) الذي يمتلكه كل أعضاء المجموعة اللغوية بصورة عفوية وغير واعية وقد يختلف النطق أحيانا بين أعضاء المجموعة لعوامل عديدة ومختلفة؛ لكن الوظيفة تبقى واحدة، ونأخذ مثالا على نطق "ق" في الجزائر حيث ينطق "ق" و"ڤ" و "ك" و"أ" إلخ

4-2- القواعد: Grammaires

تتجمع الفونيمات لتشكل وحدات ذات دلالة ومعنى هي الكلمات، وهي بدورها تتجمع لتشكل مجموعات دالة وهي الجمل وفق أنظمة دقيقة ومحددة لغويا؛ هذه الأنظمة هي التي تُكون قواعد اللغة.

هذه الوحدات الدنيا الدالة تسمى بالمونيمات (monèmes) والتي تنقسم بدورها إلى رموز (lexèmes) وتتعلق بالقاموس والمعنى، والمورفيم (morphèmes) والذي يظهر في القواعد النحوية والصرفية ويتعلق بصفة خاصة بالوظيفة. فالذي يبين الدلالة التي ترمز لها الكلمة يدخل ضمن ليكسام والذي يبين الوظيفة والموقع الإعرابي أو البنية الصرفية (كالجمع والمثنى مثلا) يدخل ضمن المورفيم. وتحليل العبارة إلى مورفيمات وليكسيمات يسمى بالتحليل المورفولوجي.

4-3- علم الدلالة – السيميائية: Sémantique

وهو العلم الذي يدرس معاني الوحدات اللسانية؛ فالعلامات الصوتية (الكلمات أو الجمل) لا تشير إلى الوضعيات أو الأشياء كما هي حقيقة، وإنما للمفهوم الذي نملكه عنها. وقد وضع أوڤدن وريتشارد مثلثا، من خلاله تتحقق العلاقة بين الشيء المسمى والكلمة الحاملة للاسم بوساطة المفهوم.

مثلث أوڤدن وريتشارد:

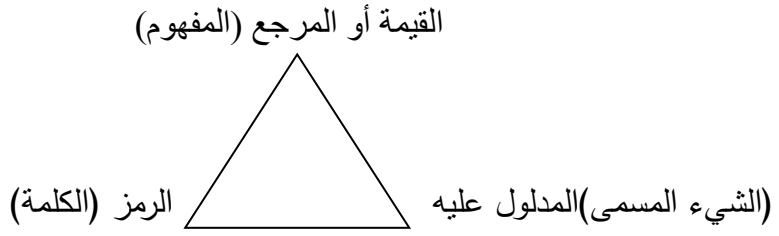

وإن الكلمات في اللغة تُشكّل نظاما على مستوى المفاهيم، بعض هذه المفاهيم يكون مرتبطا ببعضه البعض، فالقلم والكتاب والمعلم والمدرسة ألفاظ تنتمي إلى حقل واحد والواحد منها يذكر بالآخر، هذا الحقل المفاهيمي الذي تنتمي إليه الوحدات الرمزية المتقاربة يُسمى بالحقل الدلالي.